



Scenes of the Afterlife in Surahs al-Isra', al-Kahf, Maryam, and Taha: A Thematic-Analytical Study of Resurrection, Gathering, and Recompense

مشاهد الآخرة في سور الإسراء والكهف ومريم وطه: دراسة موضوعية تحليلية في بنية البعث والحشر
والجزاء

Dr. Naeem Khan

Department of Tafsir and Qur'anic Sciences, Faculty of Usuluddin
International Islamic University, Islamabad, Pakistan.

naeemkhan1059@gmail.com

Dr. Ihsan Ullah

Assistant Professor of Islamic Studies, Abasyn University, Islamabad,
Pakistan

Ihsan.ullah@abasynisb.edu.pk

Dr. Muhammad Shah Faisal

Assistant Professor, Department of Islamic Studies, AlHamd Islamic
University Islamabad. dr.shah.faisal@aiu.edu.pk

Abstract

This study examines eschatological scenes in Surahs al-Isra', al-Kahf, Maryam, and Taha in order to identify the thematic and visual structure governing resurrection, gathering, judgment, and recompense. Using inductive collection and contextual analysis, it shows that al-Isra' establishes individual accountability through the record of deeds and refutes the denial of bodily resurrection; al-Kahf supplies a historical sign through the Companions of the Cave and presents gathering, the record, and contrasting destinations; Maryam emphasizes individual return to God and contrasts the honored delegation of the righteous with the thirsty procession of criminals; and Taha develops a panoramic scene of the Trumpet, leveled mountains, humbled voices, regulated intercession, and perfect justice. The article concludes that the sequence moves from rational and historical proof to affective and cosmic visualization, transforming belief in the afterlife into a framework for self-accountability, ethical use of time, responsible knowledge, and justice.

Keywords: Afterlife; al-Isra; al-Kahf; Maryam; Taha; resurrection; gathering; recompense.

المستخلص



تتناول هذه الدراسة مشاهد الآخرة في سور الإسراء والكهف ومريم وطه، بقصد الكشف عن البنية الموضوعية والتصويرية التي تنتظم قضايا البعث والحشر والحساب والجزاء في هذه السور الأربع. واعتمدت المنهج الاستقرائي في جمع الآيات ذات الصلة، والمنهج التحليلي في دراسة سياقاتها وحججها وخصائصها البنيوية، مع الاستفادة من كتب التفسير وشرح الحديث. وقد أظهرت الدراسة أن سورة الإسراء تؤسس المسؤولية الفردية من خلال كتاب العمل، وتفكك شبهة استحالة إعادة العظام والرفات؛ وأن سورة الكهف تقدم الشاهد التاريخي على البعث في قصة أصحاب الكهف، ثم تعرض الجمع والكتاب والمصيرين المتقابلين؛ وأن سورة مريم تبرز فردية المحيي إلى الله، وتقابل بين وفد المتقين وسوق المجرمين، وتصور الحسرة والورود والنجاة؛ أما سورة طه فت رسم المشهد الكوني والقضائي للنسخ ونسف الجبال وخضوع الأصوات والشفاعة المقيدة وانتفاء الظلم. وخلص البحث إلى أن ترتيب هذه السور ينقل المتلقي من البرهان العقلي والتاريخي إلى المشهد الوجداني والكوني، ويربط الإيمان بالآخرة بالحسبة الذاتية، واستثمار الزمن، وحفظ وسائل المعرفة، والعدل في الحقوق.

المقدمة

يشكل الإيمان باليوم الآخر محورًا حاكمًا في التصور القرآني؛ إذ يربط وجود الإنسان بغاية، ويجعل الحرية مقرونة بالمسؤولية، ويضع القوة والمال والزمن داخل أفق الحساب. ولا يعرض القرآن الآخرة بوصفها قضية تحبريدية، بل يحولها إلى مشاهد نابضة: إنسان يقرأ كتابه، وقوم يخرجون من الأجداث، وجبال تنسف، وأصوات تتخشع، ومتقون يفدون إلى الرحمن، ومجرمون يساقون إلى العذاب. ومن خلال هذا التصوير يتداخل البرهان العقلي مع التأثير الوجداني، ويغدو الغيب قوة موجهة للسلوك.

وتتميز سور الإسراء والكهف ومريم وطه بتقاربها في ترتيب المصحف وتنوعها في عرض مشاهد الآخرة. فسورة الإسراء تواجه الإنكار وتقرر المسؤولية الفردية؛ وسورة الكهف تجمع الدليل التاريخي بالشهد العام للحشر والكتاب؛ وسورة مريم تركز على الحسرة والفردية وتفاوت مواكب الحشر؛ وسورة طه ترسم التحول الكوني ونظام القضاء الأخروي. ومن هنا تنشأ مشكلة البحث في السؤال الآتي: كيف تتكامل هذه السور الأربع في بناء اليقين بالبعث وتصوير الحشر والجزاء، وما الخصائص المنهجية والتربوية التي تنتظم هذا التكامل؟

اعتمد البحث المنهج الاستقرائي في جمع الآيات المتعلقة بالآخرة في السور الأربع، والمنهج التحليلي في قراءة السياقات والروابط الحجاجية والصور البنيوية، والمنهج الموضوعي في تصنيف المادة بحسب وظيفة كل سورة داخل



البناء الكلي. ويقتر البحث على المشاهد التي تتصل مباشرة بالبعث والحشر والحساب والجنة والنار، مع الاستعانة بالسنة الصحيحة فيما يفسر المجمل، ودون التوسع في تفصيلات غيبية لا يدل عليها النص.

الدراسات السابقة وموقع البحث

تناولت دراسات عديدة اليوم الآخر في القرآن من زوايا عدة؛ فركز بعضها على التصوير الفني لمشاهد القيامة، ودرس بعضها الآخر العقائد المتصلة بالموت والبرزخ والبعث والحساب في مجموع القرآن والسنة. وقد أسهمت هذه المؤلفات في جمع المادة وتقرير الأصول، غير أن اتساع مجالها لم يسمح دائماً بتتبع الخصوصية السياقية لكل سورة أو بيان مسار التكامل بين مجموعة محددة من السور. كما أن بعض الدراسات التي أفردت سوراً أو أجزاء من القرآن غلب عليها الوصف والجمع أكثر من تحليل وظيفة المشهد داخل البناء الموضوعي للسورة.

وتتميز الدراسة الحالية بأنها تقصر النظر على أربع سور متتابعة، وتقرأها في مستويين متكاملين: مستوى داخلي يدرس موضع المشهد الأخرى في سياق السورة، ومستوى مقارن يبين الإضافة التي تقدمها كل سورة لبناء اليقين بالبعث والحشر والجزاء. وهي لا تدعى استقصاء كل مسائل اليوم الآخر، وإنما تبحث في هندسة العرض القرآني: كيف ينتقل من السؤال العقلي إلى الشاهد التاريخي، ومن المسؤولية الفردية إلى المشهد الجماعي والكوني، وكيف تتحول هذه الصور إلى مبادئ للمحاسبة والعدل وتربية الإرادة.

أهداف البحث وحدوده

يهدف البحث إلى حصر أبرز الآيات الأخرى في السور الأربع، وتحليل أدلتها وصورها ومفاتيحها، والكشف عن الروابط بين البعث والحساب وبين أخلاق المعرفة والعمل، وبيان أثر ترتيب السور في تنمية اليقين. ويقف عند حدود النصوص الصحيحة، فلا يخوض في تحديد وقت الساعة أو تعيينات يابجج وماجج المعاصرة، ولا يتوسع في الجزئيات التي لم ترد في نطاق السور إلا بمقدار ما تفسر المجمل وتخدم المقصد الموضوعي.

أولاً: الإطار المفاهيمي ومنهج قراءة المشهد الأخرى

المشهد الأخرى هو بناء نصي تتجمع فيه الحركة والزمان والمكان والهيئات والأصوات، بحيث يتحول المعنى الغيبي إلى صورة قابلة للتخيل والاعتبار. ولا يعني ذلك أن الصورة القرآنية تمثيل فني منسج عن الحقيقة، بل هي إخبار



صديق صنيح بأسلوب يوقظ العقل والقلب. أما الدراسة الموضوعية فلا تكتفي بجمع الآيات، وإنما تبحث عن الوحدة التي تربطها، وعن الوظيفة التي تؤديها داخل سياق السورة وعبر مجموعة السور.

وباستقراء السور الأربع يمكن رصد مسار متدرج: تبدأ الإسراء بإشبات المسؤولية ونقض شبهة الاستحالة، وتضيف الكهف شاهداً تاريخياً ونموذجاً لحدودية العمران البشري، ثم تنقل مريم القارئ إلى داخل التجربة الوجدانية للحسرة والوفود والسوق، وأخيراً تعرض طه المشهد الكوني والقضائي الذي تتساوى فيه الأرض وتضع الأصوات ولا تنفع الشفاعة إلا باذن. وهذا التدرج لا يلغى تداعيل الموضوعات، لكنه يكشف الاتجاه الغالب لكل سورة.

ثانياً: مشاهد الآخرة في سورة الإسراء: المسؤولية الفردية وحجاب البعث

1. كتاب العمل وقيام الحجة من داخل الإنسان

تبدأ بنية الحجزاء في سورة الإسراء من داخل الإنسان نفسه؛ فعمله ملازم له، وكتابه يخرج منشوراً، وهو الذي يقرأه ويحكم على ذنبه: ﴿وَكُلُّهُ إِنْسَانٌ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا¹﴾. فالكتاب ليس وثيقة خارجية قابلة للطعن، بل صورة مكشوفة لمسار الإنسان، وقد رأى السعدي في هذا الإلزام غاية العدل والإنصاف؛ لأن الحجة تقوم بما يعرفه المرء من نفسه².

ويعقب ذلك تقرير قاعدة الهداية والضلال: من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليه، ولا تحمل نفس وزر أخرى. وهكذا تقطع السورة ذرائع الاتكال على الجماعة أو الموروث أو الزعامة. كما تضع السمع والبصر والفؤاد في دائرة السؤال، فتربط الحجاب بطريقة تكوين المعرفة: ما الذي سمعه الإنسان؟ وكيف نظره؟ وما الذي عقد عليه قلبه؟ إن المسؤولية الآخوية هنا تبدأ قبل الفعل الظاهر، من أخلاق التلقي والتحقيق وعدم اتباع ما ليس للإنسان به علم.

2. تفليك شبهة العظام والرفات

صاغ منكرو البعث اعترافهم في صورة استبعاد مادي: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا³﴾. ويكشف التعبير عن انتقاهم من السؤال إلى السخرية؛ فهم يجعلون تفتت الجسد معياراً لعجز القدرة. غير أن الجواب القرآني لا يقتصر على تأكيد الإعادة، بل يهدم معيار الاستحالة: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي



صُدُورُكُمْ. فحتى لو تحول الإنسان - في تقديره - إلى مادة أبعد عن قبول الحياة، فإن ذلك لا يخرج عن سلطان الخالق.

ثم تعاد الحجّة إلى أصلها: ﴿قُلِ الدِّينُ قَطْرٌ مِّمَّا أُوتِيَ آبَاؤُكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾. وقد بين ابن عاشور أن ذكر العظام والرفات يقصد به تصوير الاستبعاد في نفوسهم، فباء الاستدلال بالابتداء الأول ليكشف تنافسهم؛ إذ يقولون بالخلق الأول ثم يستبعدون الإعادة⁴. وتوسع السورة البرهان من خلق الإنسان إلى خلق السماوات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾. وبذلك يجتمع دليل الفطرة الأولى ودليل الخلق الأعظم.

3. هيئة الحشر وجزاء تعطيل أدوات الهداية

تنقل السورة من البرهان إلى التصوير: ﴿وَنُخْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُلَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾. وهذه الهيئة جزاء مناسب لمن أبصر الآيات فلم يعتبر، وسع الوحي فلم يقبل، وملك القدرة على البيان فاستعملها في التكذيب. وقد أثبت الحديث إمكان الحشر على الوجوه، وأن الذي أمشي الإنسان على قدميه قادر على أن يمشيه على وجهه⁷.

وفي مقابل التعلق بالانتماء الجمعي، تقرر السورة أن الناس يدعون يوم القيامة بإمامهم، وأن من أوتي كتابه بيمينه يقرؤه ولا يظلم قتيلاً⁸. فدلالة الإمام لا تلغي الفردية، بل تكشف المرجعية التي اختارها الإنسان، ثم يبقى الحزاء على عمده. ومن ثم تجمع الإساءة بين نقد التقليد ومسؤولية القيادة ومسؤولية التابع، فلا تتحول الطاعة إلى عذر أخروي.

ثالثاً: مشاهد الآخرة في سورة الكهف: الشاهد التاريخي واكتشاف حقيقة العمل

1. أصحاب الكهف نموذجاً حياً لإمكان البعث

تقدم قصة أصحاب الكهف شاهداً تاريخياً يقرب معنى البعث إلى الحس؛ فتدلبث القتيبة زمناً طويلاً ثم بعثهم الله من رقادهم، وأظهر أمرهم للناس: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. ولا تتماثل اليقظة من النوم مع البعث من كل وجه، لكنها علامة تقطع دعوى الاستحالة وتبين أن طول المدة لا يعجز القدرة.



ويتصل هذا الدليل بموضوع القننة في السورة؛ والتقنية اختاروا الإيمان في وجه ضغط المجتمع، ثم صار شباهتهم نفسه دليلاً للأجيال على الوعد. وهكذا يتحول التاريخ من سجل للماضي إلى حجة على المستقبل، ويصبح حفظ العقيدة سبباً لحفظ الذكر والأثر. كما تعلم القصة أن إدراك الآخرة يعيد تقييم الزمن؛ فما ظنه التقنية يوماً أو بعض يوم كان في حاب الناس قروناً.

2. انهيار الجبال والجمع الشامل ووضع الكتاب

ترسم السورة مشهداً عاماً يبدأ بتحريك الجبال وبروز الأرض وينتهي بجمع لا يستثنى أحداً: ﴿يَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَخَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾¹⁰. وتؤدي الأرض البارزة وظيفة رمزية وعقدية؛ إذ يزول ما كان يحجب الإنسان أو يمنحه وهم الاحتماء، ويقف الجميع في فضاء واحد أمام ربهم.

ثم يوضع الكتاب، فيشفق الجرمون من دقة الإحصاء: ﴿إِنَّا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. وقد فر الطبري الحشر بجمع الخلائق إلى موقف الحساب، وأبرز أن النص ينفي ضياع أي فرد أو عمل¹¹. وتأتي خاتمة المشهد: ﴿وَلَا يَنْظُرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، فتجمع بين رهبة الإحصاء وطمأنينة العدل.

3. ذو القرنين ويأجوج ومأجوج: حدود الإغبار البشري

تعرض قصة ذي القرنين عملاً عمرانياً ناجحاً في معاتمة الفساد، لكن خاتمة مرتبطة بالوعد: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّيْ حَقًّا﴾، ثم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ مِّجْجًا﴾¹². فالسد يمثل قيمة العلم والتنظيم والتعاون، لكنه لا يتحول إلى رمز للخلود البشري؛ إذ تبقى الأسباب محكومة بالأجل.

ويثبت الحديث الصحيح خروج يأجوج ومأجوج ضمن الآيات الكسرى¹³. غير أن الوظيفة الأساسية للنص ليست تحديد خراط أو مواعيد، بل بناء الوعي. بمحدودية القوة الإنسانية، وبأن معاتمة الفساد واجب في زمن القدرة، مع اليقين بأن التاريخ كله ينتهي إلى يوم الجمع. وهذا التوازن يمنع الاستسلام باسم القدر، كما يمنع تأليه التقنية والعران.

4. ضلال السعي والمصيران المتقابلان



من أدق مشاهد السورة بيان أن الخسارة قد تقع مع كثرة الحسرة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. ثم تقرر أنهم لا يقيم لهم يوم القيامة وزن، وتكفل لهم بمن آمن وعمل صالحاً فكانت له جنات الفردوس نزلاً¹⁴.

وبذلك لا يكون معيار النجاة مجرد النشاط أو النية المدعاة، بل صحة المرجعية وإخلاص العمل وموافقته للحق. وتكرر السورة المقابلة بين ماء كالمهل يشوي الوجوه، وبين الأساور والحريير والأرائك، لتجعل الحجزاء امتداداً أخلاقياً للاختيار. فالذي أحاطت به خطيئته أحاطت به النار، والذي ثبت على الإيمان أحاط به الأمن والخلود.

رابعاً: مشاهد الآخرة في سورة مريم: الحسرة والفردية وتفاوت مواكب المحشر

1. يوم الحسرة وانتهاء زمن الاختيار

تسمي السورة الموقف الآخروي «يوم الحسرة»: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾¹⁵. والحسرة ألم ناشئ عن انكشاف ما كان يمكن تداركه ثم فات. ولذلك يرتبط المشهد بالغفلة في الدنيا، لا بنقص المعلومات وحده؛ فقد وصلت الرسالة، لكن الانشغال أخر الاستجابة حتى صار الأمر مقضيًا.

وتعالج السورة اعتراض الإنسان: ﴿إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، فترده إلى غفلة الأول حين لم يكن شيئاً¹⁶. ثم تصور جمع الشياطين والمكذبين، والورود على النار، ونجاة المتقين وترك الظالمين فيها جثيًا. وقد بين السعدي أن الآيتين تجمعان حتمية السرور أو الحضور مع اختصاص المتقين بالنجاة¹⁷.

2. وفد المتقين وسوق الجرمين

تبلغ المقابلة ذروتها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشَعُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنُسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾¹⁸. فالوفد جملة ترد على الملك مكرمة، بينما الورود قوم عطاش يباقون إلى الماء، واستعمل هنا للسوق إلى النار. وقد أبرز القرطبي ما بين اللفظين من مقابلة في الهدية والمصير¹⁹.

واللافت أن المتقين ينسبون إلى اسم «الرحمن»، فيحضر الرحباء داخل مشهد الحشر، بينما يرد الجرمون في صيغة السوق التي تنزع عنهم الاختيار. فلا يلغي الخوف الرحمة، ولا تتحول الرحمة إلى تسوية بين من اتقى ومن أجرم. وهذه الثنائية من أهم أدوات التبرية القرآنية؛ لأنها تحمي المؤمن من اليأس والغرور معًا.

3. المعجى الفردي وسقوط دعاوى الملك والنسب



تقرر السورة أن كل من في السماوات والأرض آتي الرحمن عبداً، وأنه أحصاهم وعدهم عدداً، وأن كل واحد يأتي يوم القيامة فرداً²⁰. والفردية هنا فردية المسؤولية؛ فلا مال يصاحب، ولا ولد يتحجب، ولا جملة تحمل الذنب. وهي لا تنقض الحشر الجماعي، لأن الاجتماع يتعلق بالمكان، أما الحساب فيتعلق بالذات والعمل.

وتتصل هذه الدلالة بنقد دعوى من قال: ﴿لَا تَتَّبِعْ مَالًا وَلَا ذُلًّا﴾، فتسأل السورة: أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟ إن الثروة والاستداد العائلي اللذين كانا دليل نخب في الوعي الديني يتحولان إلى أشياء موروثة تشترك خلف الإنسان، بينما يأتي وحده. وبذلك تعيد الآخرة ترتيب معايير القيمة.

4. الجنة بوصفها دار سلام ووفاء بالوعد

تقابل السورة الحسرة بجنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب، وتصف أهلها بأنهم لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً، ولهم رزقهم بكرة وعشيا²¹. فالنعيم ليس مادياً فقط؛ بل هو بيئة أخلاقية حامية من اللغو والعدوان، يسودها السلام والوفاء. وهذا الوصف يربط استحقاق الجنة بتطهير اللسان والعلاقات في الدنيا، فلا تتفصل العناية الأخروية عن آداب المجتمع المؤمن.

حامساً: مشاهد الآخرة في سورة طه: التحول الكوني ونظام القضاء العادل

1. خفاء السامة ووضوح عايتها

يأتي تفسير السامة في سياق خطاب التكليف لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ السَّامَةَ آيَةٌ أَكَلُوا أُخْفِيَهَا لِيُتَجَرَّبَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكُمُ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ وَاتَّبَعُوا سَوَاءَ فَتَرَاوِي﴾²². فالوقت مخفي، لكن العناية معلنة: الحبراء على السعي. وبهذا ينتقل السؤال من «متى؟» إلى «بماذا أستخدم؟»، ويربط بإنكار الآخرة باتباع الهوى، لأن إسقاط الحساب يحرر الشهوة من الرقابة.

2. النفخ في الصور وحشر المجرمين زرعاً

تصور السورة حامل الوزر يوم القيامة وقد صار جملة حالداً، ثم تنتقل إلى النفخ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْعًا * يَخْتَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾²³. ويجمع المشهد تغير الهيئة وانخفاض الصوت



واضطراب تقدير الزمن. فالذين ملؤوا الدنيا ضجيجاً يتخافتون، والعمر الذي استغرقهم يبدو أليماً قليلاً أمام امتداد الآخرة.

ويؤدي ذكر الزمن وظيفة نقدية؛ إذ يكشف أن طول الأمل كان وهماً اختلافاً تقدير مدة البث لا يغير الحقيقة، لكنه يعبر عن صدمة الانتقال من الزمن المحدود إلى اليوم الذي تستقر فيه النتائج. ومن ثم يصبح الاقتصاد في الغفلة واستثمار اللحظة الحاضرة من أبرز ثمرات المشهد.

3. نفس الجبال وخشوع الأصوات

عندما يسل الخاطب عن الجبال، يأتي الجواب بالحسرة الحاسمة: ﴿فَقُلْ يَنْسِفْهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾²⁴. وتصح الأرض مستوية، ويتبع الناس الداعي لا عوج له، وتختفئ الأصوات للرحمن فلا يسمع إلا همساً. إن زوال الجبال يعلن سقوط كل ما كان رمزاً للثبات، وخشوع الأصوات يعلن انتهاء سلطة الخطاب البشري أمام الحكم الإلهي.

ولا يعمل هذا التحول بوصفه خلفية مرعبة فقط؛ فهو يهيئ فضاء العدل، حيث لا يحتبى أحد ولا يتقدم جماعة على أخرى بالقوة أو المكان. وهنا تظهر الصلة بين العقيدة والعمران: ما دام كل بناء دنيوي قابلاً للزوال، فإن قيمته تقاس بما يخدم الحق لا بما يبخ أصحابه وهم الديومة.

4. الشفاعة المقيدة وانتفاء الظلم

تقرر السورة أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً²⁵. فهي رحمة حقيقية، لكنها لا تستقل عن مشيئة الله ولا تتحول إلى وساطة تلغي المسؤولية. ثم يحيط العلم الإلهي بالخلق، وتعنو الوجوه للحي القيوم، ويخيب من حمل ظلمًا، بينما لا يخاف المؤمن هضمًا ولا ظلمًا. وبهذا يثبت الرحاء داخل نظام عدلي لا محاباة فيه.

5. العمى الأخروي بوصفه انكشافاً لعمى البصيرة

تربط السورة الإعراض عن الذكر بظنك المعيشة والحشر أعسى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْجًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾²⁶. وعندما يسل: لم حشرتني أعسى وقد كنت بصيراً؟ يأتي الجواب بأن الآيات أتمه فسيها، فذلك ينسب. والجزء هنا يكشف الحقيقة الباطنة؛ فقد كانت له عين حسية، لكنه عطل وظيفة البصيرة، فظهر العمى يوم انكشاف السرار. وقد نبه ابن عاشور إلى مناسبة الجزء للإعراض عن الدليل والهداية²⁷.



سادساً: التكامل الموضوعي والخصائص البنيوية بين السور الأربع

تكشف المقارنة أن الإسراء تبدأ من سؤال الإمكان والمسؤولية: من يعيد الجسد؟ ومن يتحمل العمل؟ وتجب بالخلق الأول والكتاب الشخصي. ثم تقدم الكهف دليلاً تاريخياً وتكشف أن العمل قد يضل رغم كثرة السعي، وأن العمران مهما قوي محكوم بالوعد. وتنقل مريم إلى أثر اليقين أو الإنكار في هيئة الإنسان يوم الحشر: حرة، وفد، ورد، ومجيء فردي. وأخيراً توسع طه المشهد ليشمل الكون والقضاء: نفخ، وجبال، وداع، وهمس، وشفاعة، وعدل.

ومن خصائص هذا البناء: أولاً، تنوع الدليل بين العقلي والتاريخي والتصويري؛ وثانياً، الانتقال من الفرد إلى الجماعة ثم إلى الكون؛ وثالثاً، المقابلة بين اليمين والعمى، والفردوس والنداء، والوفد والورد، والإذن والحرام؛ ورابعاً، ربط المشهد الأخرى بسلوك معرني وأخلاقي محدد؛ وخامساً، الإيجاز الحركي الذي يحول أحداثاً كونية كبرى إلى أفعال متتابعة سريعة.

كما تكمل أسماء الله داخل المشاهد: الخالق في حجاب البعث، والرحمن في الوفد والشفاعة، والحي القيوم في خضوع الوجه، والرب الذي لا يظلم أحداً في الحجاب. فلا تعرض الآخرة بوصفها نظاماً آلياً، بل بوصفها تجلياً للقدر والعلم والرحمة والعدل. وهذا التكامل هو الذي يمنع اختزال الخطاب الأخرى في الخوف وحده.

سابعاً: الدلالات التربوية والتطبيقات المعاصرة

أول التطبيقات هو بناء الحاسبة الذاتية؛ فصورة الكتاب الذي يقرأه صاحبه تقتضي توثيق القرار الأخلاقي في الضمير قبل أن يوثق في الصحيفة. ويمكن للمؤسسات التربوية أن تحول هذا المعنى إلى ممارسة يومية للمراجعة، لا إلى شعور مرضي بالذنب. وثانيها تربية العقل على البرهان؛ فالقرآن لا يقيع سؤال البعث، بل يعيده إلى الخلق الأول والكون والتاريخ، مما يقدم نموذجاً للحوار مع الشبهات المعاصرة.

وثالثها تصحيح مفهوم النجاس؛ فسورة الكهف تحذر من سعي كثير يضل عن غايته، وسورة مريم تسقط ضمانات المال والولد، وسورة طه تربط إنكار الآخرة بالهوى. فالنجاس في المنظور القرآني يضم صحة المقصد وصحة العمل ومآله. ورابعها تعزيز أخلاق المعرفة؛ لأن السمع والبصر والفؤاد مسؤولية، والإعراض عن الذكر ينتهي إلى العمى. وهذا يقتضي مقامة الشائعة والتضليل والاستهلاك غير النقدي للمعلومات.



وحنا مسها ربط العداة بالأسل؛ فالكتاب لا يغادر، والرب لا يظلم، والشفاعة لا تقع إلا بإذن. لذلك ينبغي الإيمان بالآخرة المظلوم يقيناً بأن الحق لا يضيع، وينبغي صاحب النفوذ من تحويل الوساطة إلى امتياز يلغي القانون. وسادها استثمار الزمن؛ لأن أهل الكهف والمجرمين في طه يكشفون نسبة الإحساس بالعدة، ويوم الحسرة يبين أن أخطر الخسائر هو تأجيل التوبة والعمل حتى يغلق باب الاختيار.

الخاتمة والنتائج

خلص البحث إلى أن سورة الإسراء والكهف ومريم وطه تبنى منظومة متكاملة لمشاهد الآخرة، تبدأ بإقامة الحجّة على إمكان البعث ومسؤولية الفرد، ثم تقدم شاهداً تاريخياً على الوعد، وتصور تفاوت مواكب الحشر، وتنتهي بمشهد كوني وقضائي ينتهي فيه الظلم. ويمكن إجمال أهم النتائج فيما يأتي:

1. تؤس سورة الإسراء المسؤولية الأخروية على ملازمة العمل لصاحبه، وتفكك إنكار البعث بالخلق الأول وخلق السموات والأرض.
2. تقدم سورة الكهف قصة أصحاب الكهف بوصفها شاهداً تاريخياً على حقانية الوعد، وتربط نهاية العمران البشري بالفتح والجمع.
3. يكشف كتاب الأعمال في الإسراء والكهف أن الحجاب يقوم على الإحصاء الكامل وشهادة الإنسان على ذاته، لا على الدعاوى والانتفاءات.
4. تبرز سورة مريم فردية المحيي إلى الله، وتصور الفرق بين تكريم المتقين وسوق المجرمين من خلال مقابلة الوفد والورد.
5. تجعل سورة طه خفاء موعد الساعة وسيدة للاستعداد، وتربط غايتها بالجزاء على السعي لا بالجدل الزمني.
6. نفس الجبال وخشوع الأصوات والشفاعة المقيدة في طه عناصر في نظام عدلي يحجج القدرة والرحمة وانتفاء المحاباة.
7. يتدرج الخطاب في السور الأربع من البرهان العقلي إلى الشاهد التاريخي، ثم إلى التأثير الوجداني والتصوير الكلوني.



8. تنتج المشاهد الأخرى برنامجاً عملياً للحاسبة، وأخلاق المعرفة، واستثمار الزمن، وتصحيح معايير النجاح والعدالة.

وتوصي الدراسة بافراد بحوث مقارنة في كتاب الأعمال بين الإسراء والكهف، وفي صور المحشر بين مريم وطه، وبناء وحدات تعليمية تجمع الحجاج العقلي والتصوير القرآني، مع توظيف موضوع الآخرة في التبرية على النزاهة والمسؤولية والوعي الإعلاني، بعيداً عن المبالغات والتحديدات الغيبية غير المنضبطة.

الهوامش

1. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيتان: 13-14.
2. السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص454.
3. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيات: 49-52.
4. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص120-121.
5. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 99.
6. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 97.
7. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿الذين يحشرون على وجوههم﴾، حديث رتم: 4760؛ وانظر حديث رتم: 6523.
8. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 71.
9. القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: 21.
10. القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: 47-49.
11. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج18، ص37.
12. القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: 98-100.
13. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، حديث رتم: 2901، ج4، ص2225.
14. القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: 103-108.



15. القرآن الكريم، سورة مريم، الآية: 39.
16. القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات: 66-72.
17. السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 498.
18. القرآن الكريم، سورة مريم، الآيتان: 85-86.
19. القرطبي، الجوامع لأحكام القرآن، ج 11، ص 151.
20. القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات: 93-95.
21. القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات: 60-63.
22. القرآن الكريم، سورة طه، الآيتان: 15-16.
23. القرآن الكريم، سورة طه، الآيات: 100-104.
24. القرآن الكريم، سورة طه، الآيات: 105-112.
25. القرآن الكريم، سورة طه، الآية: 109.
26. القرآن الكريم، سورة طه، الآيات: 124-127.
27. ابن عاشور، التحرير والتنوير، عند تفسير سورة طه، الآيات: 124-127.